ماذا يعني العلم للفلسطينيين ؟

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

يشتهر الفلسطينيون بالنسبة العالية من المتعلمين في مجتمعهم . وقد لا تتوفر إحصاءات دقيقة عن الذين حصلوا من بينهم على شهادات أكاديمية عليا ، ولكن من المؤكد أن عددهم كبير وأنه يجاوز كثيرا نسبة الحاصلين على شهادات مماثلة لدى شعوب تفوق الفلسطينيين تعدادا وتمتلك إمكانيات أضخم بما لا يقاس .

هذه الملاحظة واحدة من ملاحظات عديدة ، تشهد للفلسطينيين بالحيوية والقدرة على مواجهة الصعاب وعلى التجدد عقب النوازل الصاعقة . ولعلهم مثل من الأمثلة التي كان بوسع المؤرخ البريطاني الشهير أرنولد توينبي أن يستشهد بها لإسناد نظريته القائلة بأن محرك التاريخ هو حيوية الاستجابة للتحدي .

كان إخراج العرب الفلسطينيين من فلسطين عام ١٩٤٨ حادثا مأساويا بكل المقاييس . إذ فقد الناس مدنهم وقراهم ومزارعهم ومعاملهم وكل شيء . وأكثر من هذا : خرجوا من البلاد دون أن يحملوا معهم إلا الملابس التي يرتدونها ، فلا أثاث ولا مؤونة . والبعض لم يكن في جيبه أكثر من حفنة من القروش .

كيف رد الفلسطينيون ـ مباشرة ـ على النكبة ؟

بالإقبال على التعليم !

كأنما قدروا وفهموا أن سياسة الانتداب البريطاني التي عملت على حصر التعليم في أعداد قليلة منهم قد مهدت للنكبة التي أصابتهم ، وأن العلم مطلوب كي لا تتكرر النكبة مرة ثانية .

وسوف نستذكر على الفور منظر معلمي المدارس الأوائل الذين أسسوا عند أطراف مخيمات اللاجئين شكلا بدائيا للغاية من المدارس : مقاعده حجارة كبيرة مصفوفة في صفوف على نسق مقاعد المدارس الحقيقية .

ولوحه خشب صناديق مما تقع عليه الأيدي تسنده حجارة أضخم وأعلى . والمعلم يبقى واقفا لا كرسي له (ولا راتب ولا أجر) . لقد كانت المبادرة أهلية محلية تعتمد على قوة الروح وتفتقد الدعم تماما .

وكما هو مفهوم ، اعتمدت تلك المبادرة على وعي أولئك المعلمين الأفاضل ، كما اعتمدت على إقبال التلاميذ : أي على تعبئة وتوجيه منزلي خاص من قبل آبائهم وأمهاتهم الذين اعتقدوا أن التعليم قد لا يكون أفضل ما يفعله الإنسان في فراغ المخيم وحسب ، بل وقد يكون كذلك مخرجا من السرداب المظلم الذي وجد الفلسطينيون أنفسهم فيه بعدما خرجوا من ديارهم على ذلك النحو الكارثي .

منذ ذلك الوقت من سنوات ١٩٤٨ و ١٩٤٩ ، سار الفلسطينيون شوطا بعيدا نحو نور العلم والمعرفة . وكانت شهادات التعليم الثانوي التي حصل عليها الخريجون الأوائل من جيل النكبة بعد ١٩٤٨ هي جواز مرور كثير من أبناء أولئك اللاجئين إلى أقطار النفط في وقت مبكر من الخمسينيات ، وقيامهم بإمداد عائلاتهم في المخيمات بدخل يقوم بأودهم على نحو معقول ، ويرفع سوية تغذيتهم التي لم تكن مخصصات بطاقة تموين وكالة غوث اللاجئين توفر سعرات حرارية كافية لأصحابها .

كان ذلك زمنا لا ينسى . واستطاع أوائل الموظفون في الخارج أن يمدوا يد المساعدة للجيل الذي تلاهم من الإخوة وأبناء العمومة . وأتيح للكثيرين من هؤلاء أن يحصلوا على تعليم جامعي ، في جامعات مصر بخاصة . وهكذا تواصلت حلقة العطاء بين مزيد من الأجيال .

ومن المعلوم جيدا أن الصعوبات والمشكلات التي واجهت الفلسطينيين لم تتوقف أبدا عبر عقود السنين ، وأن هذا الشعب المنكوب ، المؤمن بحقه ، ما زال من أشد المتعلقين بالعلم . وهو يراه سلاحا من أقوى الأسلحة بيديه ، لينال ما يستحق وليقلل من الخسائر ، وأيضا ليشق طريقه نحو المستقبل .